

وقد يعني البيت المعمور - حيث يلي العرش - سدرة المنتهى، التي انتهى إليها الرسول ﷺ في معراجه، مجتازاً ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (١) - إلى سائر بيوت الله في السماوات والأرضين - ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (٢) وهو البيت الأقصى في أقصى الكون في سدرة المنتهى.

وهكذا يحق لخاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر بأهلها، وكما قال ﷺ عن سفرته هذه: «رأيت في كل سماء ميادين فيها خلق كثير...».

لقد رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل بما بوأ له ربُّه مكان البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٣).

بوأه له بما أوحى إليه هندسة المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسه ربُّه.

إذ لم تكن له - حينذاك - قواعد ولا أعلام، إلا بذلك الإعلام من الله الملك العليم (٤).

= (١ : ١٥٤). وعن الباقر ﷺ أن الثمرات تحمل إليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا توجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي أنه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية (تفسير بيان السعادة ١ : ١٤٥).

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٤) الدر المنثور ١ : ١٢٦ - أخرج الديلمي عن علي ﷺ عن النبي ﷺ في الآية قال: «جاءت

سحابة على تريبع البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعة فرفعاها على تربيعة».

وفي نور الثقلين وعن الصادق ﷺ أن إسماعيل ﷺ لما بلغ مبلغ الرجال أمر الله إبراهيم ﷺ أن يبني البيت فقال: يا رب في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت بها على آدم القبة، فأضاء لها الحرم فلم يدر إبراهيم في أي موضع بينه فإن القبة التي أنزلها الله على آدم كانت قائمة إلى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة وبقي موضعها لم يغرق =

وإن هذا البيت المبارك - قبل أن يضع إبراهيم القواعد منه - كان بيتاً بأعلام أحياناً ودون أعلام أخرى، كيف لا ﴿وَأَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

فإبراهيم عليه السلام ليس إلا أول بانٍ لقواعده، بما بوأه ربه من مكان البيت، وقد كان بيتاً منذ آدم، مطافاً له ولذريته، بل ومنذ كانت خليقة على وجه الأرض ووجوه السماوات السبع والأرضين السبع.

﴿بَيْنَا نَقَبَلْ مِنَّا﴾ ما نرفع من قواعد البيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ دعاءنا سرّاً أو جهراً ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا وطوياتنا، و﴿الْعَلِيمُ﴾ سُؤْلُنَا، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال:

«اللَّهُمَّ لَكَ صُؤْمُنَا وَعَلَى رِزْقِكَ أَفْطَرْنَا فَتَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٢).

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٣):

وتراهما لما يسلما بعدُ لربهما حتى يسألانه ﴿وَاجْعَلْنَا﴾؟ إن الإسلام المسؤول هنا هو غاية التسليم، وهي لا تحصل إلا بعد العروج إلى معارج

= ولهذا سُمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخط له موضع البيت فأنزل الله عليه القواعد من الجنة وكان الحجر لما أنزله الله على آدم أشد بياضاً من الثلج فلما مسته أيدي الكفار اسودَّ، فبنى إبراهيم عليه السلام البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضع في الموضع الذي هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين، باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب يسمّى المستجار ثم ألقى عليه الشجر والأذخر وعلقت هاجر على بابه كساء وكان معها وكانوا يكتسون تحته.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) الدر المشور ١: ١٣٧ - أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم . . .

الإيمان، ومما استجاب لهما ربهما عن سُؤْلِ الإسلام: ﴿قَلَمًا أَسْلَمًا وَقَلَهُ
لِلْجِبِينَ ﴿١٢٣﴾ وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَتَابِرْهُمُ ﴿١٢٤﴾ قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (١).

ولذلك الإسلام درجات تدرج إبراهيم إلى ما دون العليا منها، فإن
محمدًا أول من أسلم:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ (٢) حيث الأولية هنا ليست
لتكون زمنية وقد كان قبله مسلمون كإبراهيم وإسماعيل ومن أشبهه، فهي أولية
في الدرجة، و«الإيمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قد يكون
في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في
الحرم» (٣).

ولذلك الإسلام ميّزات عن مطلق الإيمان وسمات، فلا يلبس الإسلام
بظلم أو مشرك مهما لبسهما الإيمان: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ (٤) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٥).

ولقد قورن مطلق الإيمان بمقارنات الظلم والشرك والفساد والعصيان،
ولم يقارن بشيء منها ذلك الإسلام، فلذلك يُعدّ من ميّزات المرسلين دون
الإيمان فإنه لكلّ المؤمنين بدرجاتهم.

لذلك يطلب الخليل إلى ربه الجليل أن يجعله وإسماعيل مسلمين له،
بعد كلّ درجات الإيمان ودرجات من الإسلام.

ثم يتطلّب من ربه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ ذريتي من إسماعيل ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٣) في الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام: ...

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فالرسول فيهم هو محور الدائرة، وذووه المعصومين هم الأشعة، فلأن إبراهيم تطلب لهم أصل الإسلام لا درجته، لم يمنع سؤاله أن يكون محمد أول المسلمين.

ولقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت: ﴿إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ثم يتطلب بعده إسلاماً أرقى ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ فهو كما الإيمان درجات: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾^(٢).

ولو أنه إسلام قبل الإيمان أم إسلام الإيمان، لم يكن يسأله من ربه، بل كان يفعله لأنه من فعله، فإنما الإسلام المسؤول هنا هو قمة التسليم بما آمن وأسلم، توفيقاً من الله.

وهكذا نرى ذلك الإسلام أنه من خصائل الإيمان، كل درجة منه حصيلة درجة منه فإنهما كلا درجات: ﴿إِنْ سَمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

كما ويوصي المصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

ثم ولا تسمع أحداً من النبيين يؤمر بالإيمان، اللهم إلا بالإسلام، اللهم إلا شذراً في عرض إيمان المؤمنين بعرض الرسول تليقاً رقيقاً بينهما: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

وَرُسُلِهِ ﴿١﴾ عَلَىٰ أَنْ إِيمَانَهُ هُنَا لَيْسَ بِاللَّهِ، بَلْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، طَمَآنَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .
 وَلَا تَجِدُ اللَّهَ يَذْكُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرٍ أَفْضَلَ مِنَ الْإِسْلَامِ ﴿٢﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ
 يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴿٣﴾ وَتَرَاهُمْ - دَوْمًا - يَوْمُونَ
 بِالْإِسْلَامِ وَمُرْتَبِطُونَ بِالْإِسْلَامِ! .

فذلك بدرجاته إسلام، وقبله الإيمان بدرجاته، ثم قبلهما إسلام لَمَّا
 يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ فَلَمْ يَصِلْ لِحَدِّ الْإِيمَانِ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
 وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (٣) وَأَيْنَ إِسْلَامٌ مِنْ إِسْلَامِ؟! .

وهنا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة لله من ذرية إبراهيم
 من إسماعيل، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من
 إسحاق، دون إسماعيل، ولا كل المسلمين إذ ليسوا كلهم ولا جلهم من
 إسماعيل، أتراهم بعد هم كل بني هاشم فإنهم من ذرية إسماعيل، وكيف
 تعمهم ذلك الدعاء لإسلام ردف إسلام إبراهيم؟ وفيهم عَصَا بُغَاة طُغَاة!
 ولئن خُصَّتْ بعدولهم فليس كل العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع، ثم
 لماذا تختص بهم وممن سواهم مسلمون أرقى وأجل من جلهم؟ .

إذاً فهم مسلمون خصوص من ذرية إسماعيل، والمعصومين الأربعة
 عشر ﷺ (٤) أم هم أصدق مصاديقها، وسائر الأمة المسلمة من ولد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧ .

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤ .

(٤) نور الثقلين ١: ١٣٠ في الكافي بإسناده إلى أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله ﷺ حديث
 طويل يقول فيه . . . ثم أخبر عن هذه الأمة وممن هي وأنها من ذرية إبراهيم وذرية إسماعيل
 من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة إبراهيم وإسماعيل
 من أهل المسجد الذين أخبر عنهم في كتابه أنه ﴿لِيُدْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهَّرَكُمْ
 تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] .

إسماعيل هم على هامشها؟ إلا إسلاماً أدنى ممّا لإبراهيم وإسماعيل
والمحمديين المعصومين، هو إسلام يحصل على ضوء الصمود والرقي
فلماذا يسأله لها ولهم من الله؟

فلا بدّ - إذاً - أنه إسلام العصمة القمة المرموقة ولما يصلإ إليه إذ
يرفعان القواعد من البيت .

وهكذا تكون ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ فإنها ليست توبة عليهم من عصيان، بل هي
توبة رجوعاً عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام .

فقد يتوب الله على عبد يتوب إليه عن ذنب كما في آدم ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ
فَغَوَى ﴿١٧١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٧٢﴾﴾ (١) .

أو يتوب على عبد رجوعاً برحمة خاصة تعصمه وتسدده عما لا يحمده،
لولاها لكاد أن يقتربها أو يقتربها حيث تكلّ الطاقات البشرية كما في يوسف
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (٢) وفي محمد ﷺ :
﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٣) وهكذا يكون - دوماً
- توبة الله على أصفى المصطفين .

ثم ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قد تعمّ الإراءة المعرفية إلى إراءة فقهية، فحين يرينا
الله مناسكنا كما هي، كان بإمكاننا تطبيقها كما هي، فتصبح حجة مقبولة
مشكورة محبورة، وقد تعمّ ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ مصدراً ميمياً واسم زمان ومكان،
والإراءة المعرفية تناسب الأولى .

وكان ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ هي من الظروف الصالحة لـ ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ إراءة
لملكوتها، بعد هذه التوبة التي توصل إلى الملكوت .

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢ .

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤ .

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٤ .

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩):

هناك ﴿أُمَّةٌ مُّسَلِّمَةٌ لَّكَ﴾ كانت ظرفاً ظريفاً لبلورة هذه الرسالة السامية هنا بدعاء ثان، ولقد سمع الله دعاءه في إسماعيل كما في الأصل العبراني من تكوين التوراة:

(١٧ : ٢٠): «وَلِإِسْمَاعِيلَ شِمَعْتِيخَا هِينَهُ بَرَخْتِي أُوتُوا وَهَيْفَرْتِي أُوتُوا وَهَيْرْتِي أُوتُوا بِمُئْدُ مُئْدُ شِنِيم عَاسَارُ نِسِيِيم يُولَدُ وَتَتِيُو لُغُوي غَاذُلُ»:

«ولإسماعيل سمعته: - إبراهيم - ها أنا أباركه كثيراً وأنميّه وأثمّره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة».

وفي التكوين ٢١ : ١٢ «... وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك».

وقد سُمي إسماعيل به لأنه مسموع الرب في ولادته وفي نسل أمة مسلمة من ذريته.

وفي الأصل الانقلوسي من «نَبُوئْت هَيْلِدُ»: وحي الطفل: شَبُوِيَاه شَابَاهُ بَهْهِيَا شَعَطَا بَا لِأَرْعَابْتِيَا وَو رَهَابَاه دَعْبَدَا تَشُوبَاه وَيَرْحَمُ إِبَا طَابَا عَلُ بُوَخْرَا حَبِيْبًا:

يأسر أعداءه - محمد المذكور قبل - في ساعة جيدة في أرض مرغوبة ويرحمه الله هناك إجابة لدعوة إبراهيم لإسماعيل.

ذلك - ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى أن ذلك الموعود من ولد قيدر بن إسماعيل في عدة تصريحات (١).

(١) منها ما في اشعيا (١٤٢ : ١ - ٢٠) ... لتشد البرية ومدنها والحظائر التي يسكنها قيدر =

= وليرتّم سكان الصخرة وليهتفوا من رؤوس الجبال (١١) ليؤدوا المجد لله ويخبروا بحمده في الجزائر (١٢).

هذه بشارة لنبي من قي دار و«هو الولد الثاني لإسماعيل» (تك ١٣ : ٢٥) و«أبوه من أشهر قبائل العرب وبلادهم الجزيرة العربية» (اشعيا ٢١ : ١٦).

فالصرخات التي تسمع من أهل قي دار وترنماتهم من الصخرة وهتافاتهم من رؤوس الجبال كلّ ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قي دار بن إسماعيل ، ترنمات من أعالي جبال مكة وعرفات ومنى والمشعر الحرام في حج البيت .

وفي الآية (١٠) منها : انشدوا للرب نشيداً جديداً تسيحاً له من أقاصي الأرض يا هابطي البحر ويا ملته ويا أيتها الجزائر وسكانها .

والنشيد الجديد هو الشريعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي ، وفي بعض التراجم^(١) تأتي هذه الآية هكذا : يسبحون الرب تسيحاً جديداً ويبقى أثر سلطانه بعده واسمه «احمد» (٨٩).

وفي اشعيا ٦ : ١ - ٢٢) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة وهذا الرسول المكي قائلاً :

«قومي استنيري فإن نورك قد وافى ومجد الرب أشرق عليك (١) ها أن الظلمة تغطي الأرض والد يجور يشمل الشعوب ولكن عليك يشرق الرب ويتراءى عليك مجده (٢) فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك (٣) ارفعي طرفك إلى ما حولك وانظري كلهم قد اجتمعوا وأتوا إليك . بنوك من بعيد يأتون وتحملين بناتك في حضنك (٤) حينئذ تنظرين وتتهللين ويخفق قلبك ويرحب إذ تنقلب إليك ثروة البحر ويأتيتك غنى الأمم (٥) كثرة الإبل تغشاك بكران مدين وعيفة . كلهم من «شبا» يأتون حاملين ذهباً ولباناً يبشرون بتسايبح الرب (٦) .

كل غنم قي دار تجتمع إليك - وكباش نبايوت تخدمك . تصعد على مذبحي المرضي لدي وامجد بيت جلالتي (٧) من هؤلاء الطائرين كالسحاب وكالحمام إلى كواها (٨) إن الجزائر تنتظرنني وسفن ترشيش مستعدة منذ الأوّل أن تأتي ببنيتك من بعيد ومعهم فضتهم وذهبهم لاسم الرب إلهك ولقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك (٩) وبنو الغرباء يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك لأنني في غضبي ضربتك وفي رضاي رحمتك (١٠) وتنفتح أبوابك دائماً لا تغلق نهراً ولا ليلاً ليؤتى إليك بغنى الأمم وتحضر إليك ملوكهم (١١) لأن الأمة والمملكة التي تتعبد لك والأمم تخرب خراباً (١٢) مجد لبنان يأتي إليك السرو والسنديان والشربين لزينة مقدسي =

(١) هذه ترجمة القسيس اوسكان الأرمني في ترجمته لكتاب اشعيا المطبوعة ١٧٣٣ في مطبعة انتوني بورتولي وقد ألفها في ١٦٦٦ - أي قبل ٦٧ سنة من طبعها).

وقد يُروى عن النبي ﷺ قوله: «أنا دعوة إبراهيم»^(١) و«إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينة وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأيت وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٢).

﴿وَأَبَعَثَ فِيهِمْ﴾ هذه الأمة المسلمة من ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وكلهم نور واحد فإن: أولنا محمد آخرنا محمد وأوسطنا محمد وكلنا محمد صلوات عليهم أجمعين.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ تكوينية: آفاقية وأنفسية، وتدوينية: قرآنية وكتابات أخرى.

= وأمجد موطن قدمي (١٣) وبنو الذين عتوك يفدون إليك خاضعين ويسجد لأخامص قدميك كل من ازدراك ويدعونك مدينة الرب (١٤) وبما أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك سأجعلك فخر الدهور وسرور كل جيل فجيل (١٥) وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدي المملوك وتعلمين أنني أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب (١٦) آتي بالذهب بدل النحاس وآتي بالفضة بدل الحديد وبالنحاس بدل الخشب والحديد بدل الحجارة واجعل ولاتك سلاماً ومسخريك عدلاً (١٧) لا يسمع من بعد بالجور في أرضك ولا بالدمار والحطم في تخومك بل تدعين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسيحاً (١٨) لا تكون الشمس من بعد نوراً لك نهائياً ولا ينيرك القمر بضياؤه لئلا بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك يكون فخرك (١٩) لا تغرب شمسك من بعد وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً وتكون أيام مناحتك قد انقضت (٢٠) ويكون شعبك كلهم صديقين والى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي وعمل يدي الذي أتمجد به (٢١) القليل منهم يصير ألفاً والصغير يصير أمة عظيمة. أنا الرب أعجل ذلك في ميقاته (٢٢).

(١) الدر المنثور ١: ١٣٩ - أخرج ابن سعد في طبقاته وابن عساکر من طريق جويبر عن الضحاک أن النبي ﷺ قال: أنا دعوة إبراهيم، قال: وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَأَبَعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] حتى أتم الآية.

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن العرابض بن سارية قال قال رسول الله ﷺ: إني عند الله . . . وفيه أخرج أحمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال قلت يا رسول الله ﷺ: ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

ولماذا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هنا ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ في ثلاث أخرى^(١) أترى تعليم الكتاب والحكمة هو المقدم على التزكية كما هنا، أم هي المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى، أم هما صنوان لا يتفاضلان، فهما متعاضدان مع بعضهما البعض متقارنان؟ فلماذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها؟.

علَّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها، حيث التعليم ذريعة إلى التزكية فهي رأس الزاوية في محاولات الرسالة، فلو أمكنت التزكية دون تعليم لما كان ضرورة، وهما صنوان مُتعاملان، كلما ازداد التعليم المعرفة ازدادت التزكية، وكلما ازدادت التزكية ازداد العلم والمعرفة ف«العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه».

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠):

﴿مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هي توحيد الإسلام وإسلام التوحيد لوجه الله، ولا يرغب عنها إلا من سفه نفسه: حملاً لها على خفة العقل والإدراك، فالنفس الإنسانية فطرياً وعقلياً راغب إلى هذه الملة المسلمة الحنيفة، فلا يرغب عنها إلى سواها إلا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها، استخفافاً بها وتغرّباً عنها.

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بقمّة الاصطفاء فإنه من أصفى الأصفياء

(١) وهي: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] و﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] و﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].